كتبةُ العرب وجغرافيّة سوريّة

ذكرنا في مقالتنا السابقة بطيّب الثناء احد جغرافيي الاسلام شمس الدين المقدسي. وليس هو الكاتب الوحيد من العرب الذي ضمّن تأليفهُ الفوائد المتعدّدة في وصف سوريّة. وفي نيّتنا ان نعود مرارًا الى ذكر هؤلاء الكتبة في اثناء مقالاتنا الآتية عن هذه البلاد. وعليهِ أردنا أنْ نفرد لهم فصلًا كاملًا ليكون القرّاء على بصيرة من شهاداتهم ويقدّروا كتاباتهم قدرها

١

الجغرافيُّون العرب الاقدمون

كان اوّل فتح سوريّة على يد القائد الكبير خالد بن الوليد الذي دخل دمشق بعد اواسط السنة ٦٣٥ للميلاد ثمّ أتمّ فتح بقيّة بلاد الشام في السنين التالية. فلمّا انتشرت العلوم بين العرب في القرن التاسع اخذ كتبتهم في ذكر الشام ووصف محاسنها وواصلوا هذه المصنّفات الى اواخر القرن الخامس عشر فمنهم من اتّسع في وصفهِ ومنهم من اقتصر على بعض الفوائد فلو جُمعت كلّ هذه المآثر المدوّنة في زمن لا يقلُّ عن ستة قرون لاندهل الأُدباء من وفرتها. والحقُّ يُقال ان كتبة العرب في الابحاث الجغرافيّة كما في غيرها من الفنون قد خلّفوا لنا من الآثار ما لا يجاريهم في كثرتهِ غيرهم من الشعوب. فيتحتم علينا ان نبيّن شأن هذه التآليف ونعرّف قدرَها وما يُمكن العلماء ان يستخلصوا من فوائدها

*

لو تتبَّعنا تاريخ العرب في الازمنة العريقة في القدم لوجدناهم مزدانين بخلال فريدة للضرب في البوادي وللسياحة في البلدان. تصفَّحْ سفر التكوين لموسى كليم الله فانَّهُ قد ذكر غير مرَّة عرب البادية في ايَّام الآباء بعد الطوفان منذ ابرهيم الخليل الى يوسف الحسن وغاية ما يُستنتج من اوصافهِ انَّ العرب كانوا في ذلك الوقت ما عَهِدَهم التاريخ في الاجيال التابعة. فانَّهم يظهرون لنا كقوم رُحَّل يقودون القوافل ويتجشَّمون الاسفار للمتاجرة وقد جعل الله في يدهم زمام حيوان صبور يزيد نفعهُ على منافع الخيل المطهَّمة نزيد الابل المعروفة بسُفُن البرّ. وهذا الوصف لا يختلف ذرَّةً عن احوال العرب في كرور الدهور حتَّى القرن السابع بعد الميلاد حيث ترى قريش تتولَّى قيادة الاقفال وتمتار المير وتنقل السلع الى اسواق العراق والشام واليمن والحبشة ومصر

وليس بين التاجر الرحَّالة والجغرافيّ المخطِّط للبلدان مدًى واسع فانَّ المسفار يحتاج كالجغرافيّ الى التنقيب عن أحوال الأمم والامكنة التي يتردَّد اليها فيتبَّصر في مرافقها ويدرس طباعها ويبحث عن ثروة تربتها وغلَّاتها وطُرُقها وطوارئ هوائها من حرّ وقرّ وكلّ ذلك يباشرهُ الرحَّالة لمنفعتهِ الخاصَّة كما يتولَّاهُ الجغرافيّ لنفع العموم. ومن هنا تعرف ان درس الجغرافية من انجع الوسائل واكفلها بالربح في التجارة الواسعة

وممَّا زاد العرب نشاطًا في درس البلدان واعانهم على الرصود الجغرافيَّة التي خُصَّت بمراقبتها طباعهم ما اتاحهم الله من الفتوحات العظيمة في القرنين السابع والثامن. فانَّ سلطتهم بلغت ما وراء البلاد التي اتصلت اليها يد الاسكندر ذي القرنين. فلا غروَ انهم حاولوا معرفة الاقطار التي جعلها الله في حوزتهم فاسرعوا الى تقويمها وتحديد ثغورها واستطلاع خواصها. وقد ساعدهم على ذلك ما وقفوا عليهِ من المصنَّفات الجغرافيَّة السابقة لعهدهم من اوضاع الهنود والفُرس واليونان والرومان ممَّا نُقل الكثير منهُ الى العربيَّة. وكان العرب من أجدر الناس بان يبنوا لعلم الجغرافية صرحًا شاهقًا منيفًا بما توفَّر لديهم من الوسائل الضامنة لبلوغ هذه الغاية الشريفة وذلك بان يضيفوا معلوماتهم الى معلومات اسلافهم. وسوف نذكر سبب قصورهم عن هذه البغية الجلّى

وان نال البعض منهم من ذوي المدارك العالية اسهماً رابحة من المجد فكادوا يفوزون بقصبة السبق في هذا الميدان الجليل

ومما يجب الاقرار بهِ فضل كتبة العرب في وصف البلدان وتعريف خواصها . وذلك مدخل العلوم الجغرافيَّة ومقدّمتها يكفي للقيام بهِ ان يكون الكاتب باصراً متروّياً يُحسن مراقبة المرئيّات دون ان يحتاج الى شيء من الآلات الرصديَّة او من العلوم الاعداديَّة . فمن ذلك أنهم احكموا معرفة اواسط آسية فاصلحوا أموراً عديدة مما رواهُ قبلهم اليونان والرومان رامين كلامهم على عواهنهِ . مثال ذلك ما افادنا الرومان عن الصين حدساً وسمعاً أمَّا العرب فانهم تفقَّدوا مملكة ابن السماء بل بلغوا بلاد كورية ولعلَّهم ادركوا حدود اليابان . وقس على ذلك قارة افريقية فان الرومان جعلوا الصحراء حدودها فلم يعرفوا ما وراء تلك المفاوز المجهولة . اما العرب فانهم تجاوزوا تلك الحدود وطافوا في مجاهل افريقية الى قلب تلك البلاد . وهم اوَّل من ابحر الى جزيرة مدغسكار فعرَّفوا موقعها

اما الجغرافيَّة العلميَّة فانَّ معلومات العرب فيها محصورة ضيّقة النطاق . فانَّ معرفتهم مثلاً لأعراض البلاد قد تعقَّبوا فيها آثار القدماء فاصابوا أو اخطأوا كلَّما اصاب أو اخطأ اسلافهم . امَّا خوارطهم ورسومهم لهيئة البلدان فانَّها غريبة الاشكال بعيدة عن مظانّ الحقّ (١ وقد اثبت منها المشرق مثالاً ملوناً فراجعهُ (المشرق ٣ : ١١٢٨) وها نحن ندوّن هنا مثالاً آخر ننقلهُ ببعض الوانهِ عن كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للشريف الادريسي كما يُرى في احد مخطوطات مكتبة باريس العموميَّة . ولعلَّهُ احكمُ وأتقنُ ما وضعهُ العرب من الخرائط فانَّ البحر فيها مرسوم باللون الازرق ومجاري الانهار بالاخضر (٢ . واغرب ما في هذا الأثر انَّ صاحبهُ سعى بتصوير سلسلة الجبال بتخطيطات

---

١) اطلب تاريخ الجغرافية لسان مرتين وڤول (Vivien de St Martin: *Histoire de la Géographie*, 265; K. Weule: *Geschichte der Erdkenntnis und der geogr. Forschung*, 129-125)

٢) راجع Bulletin de l'Académie d'Hippone, 1896-1898, p. 12-13 واشار صاحب الخريطة الى المدن بانجم او دوائر مذهَّبة

خريطة للشريف الادريسيّ

مقطَّعة (١ كما يشير اليها الجغرافيُّون المحدثون بعد أَن حسَّنوا هذه الطريقة وزادوها دقَّـةً

هذا وان في رواياتهم واوصافهم نفسها مبالغات هي من الغرابة بمكان ينبغي على العـاقل أَن لا يقبلها الَّا بعد الروِيَّة والانتقاد وهذه النقيصة تعمُّ زمانهم حيث كانت العلوم الطبيعيَّة في مهدها

وممَّا يؤخذ على كثيرين منهم آفة النقل والسرقة فانَّهم يروون ما سبق اليهِ غيرهم بحرفهِ دون الاشارة الى التآليف التي نقلوا عنها. وربَّما خُدع القارئ بكثرة الشواهد في بعض الامور ولو تروَّى لوجد انَّها كلَّها راجعة الى مصدر واحد وانَّ الخلَف نسخوا عن السَّلَف دون فرقٍ يُذكر في اللفظ والمعنى. ودونك ما كتبهُ في هذا الصدد شمس الدين المقدسيّ وغايتهُ ان يبيِّن بقولهِ فضل تأليفهِ على تآليف من تقدَّمهُ. وكلامهُ مع طولهِ جديرٌ بالاعتبار يوقفنا على طريقة بعض كتبة العرب في مصنَّفاتهم الى زمن المؤلف في القرن العاشر قال :

اعلم اني اسَّستُ هذا الكتاب على قواعد محكَمة واسندتهُ بدعائم قوية وتحرَّيت جهدي الصواب. واستعنت بفهم اولي الالباب . . . فما وقع عليهِ اتفاقهم اثبتهُ. وما اختلفوا فيهِ نبذتهُ. وما لم يكن لي بدٌّ من الوصول اليهِ والوقوف عليهِ قصدتهُ وما لم يقرّ في قلبي ولم يقبلهُ عقلي اسندتهُ الى الذي ذكرهُ او قلتُ زعموا. ووشَّحتهُ بفصول وجدتها في خزائن الملوك

وكل من سبقنا الى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها ولا طلب الفوائد التي اردتها . امَّا ابو عبدالله الجَيْهانيّ فانهُ كان وزير امير خراسان وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودَخْلها وكيف المسالك اليها وارتفاع الحنَّس منها وقيام الظل فيها ليتوصَّل بذلك الى فتوح البلدان ويعرف دخلها ويستقيم لهُ علم النجوم ودوران الفلك. ألا ترى كيف جعل العالم سبعة اقاليم وجعل لكل اقليم كوكبًا مرَّة يذكر النجوم والهندسة وكرَّة يورد ما ليس للعوام فيهِ فائدة وتارةً ينعت اصنام الهند وطورًا يصف عجائب الهند وحينًا يفصل الخراج والردّ ورأيتهُ ذكر منازل مجهولة ومراحل مهجورة ولم يفصّل الكُوَر ولا رتَّب الاجناد ولا وصف المدن ولا استوعب ذكرها بل ذكر الطرق شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا مع شرح ما فيها من السهول والجبال والاودية والتلال والمشاجر والانهار وبذلك طال كتابهُ وغفل عن اكثر طرق الاجناد ووصف المدائن الجياد. واما ابو زيد البلخي فانهُ قصد بكتابهِ الاشكال وصورة الارض بعد ما قسمها على عشرين جزءًا ثم شرح

١) واشار كذلك بالوان مختلفة الى طبقات الجبال الجيولوجية

كل مثال واختصر ولم يذكر الاسباب المفيدة ولا اوضح الامور النافعة في التفصيل والترتيب وترك كثيرًا من امهات المدن فلم يذكرها وما دوّخ البلدان ولا وطئ الاعمال. ألا ترى ان صاحب خراسان استدعاه الى حضرتهِ ليستعين بهِ فلمّا بلغ جيحون كتب اليهِ « ان كنت استدعيتني لما بلغك من صائب رأيي فان رأيي يمنعني من عبور هذا النهر » فلمّا قرأ كتابهُ امرهُ بالخروج الى بلخ. واما ابن الفقيه الهمذاني فانهُ سلك طريقة أُخرى ولم يذكر الّا المدائن العظمى ولم يرتب الكُوَر والاجناد وادخل في كتابه ما لا يليق بهِ من العلوم مرة يزهد في الدنيا وتارةً يرغب فيها ودفعةً يُبكي وحينًا يُضحك ويلهي. واما الجاحظ وابن خرداذبه فان كتابيهما مختصران جدًّا لا يُحصل منهما كثير فائدة

ثمّ عاد المؤلف بعد هذا باسطر الى تبرئة نفسهِ من جناية السرقة فقال(ص ٦): لا نذكر شيئًا قد سطّروه ولا نشرح امرًا قد أوردوهُ الّا عند الضرورة لئلّا نبخس حقوقهم ولا نسرق من تصانيفهم

ومع هذا ترى المقدسي نفسهُ بعد قولهِ عن ابن خرداذبه انهُ « مختصر جدًّا لا يُحصل منهُ كثير فائدة » ينقل عنهُ كل أقيسة مراحلهِ وتفاصيل أُخرى عديدة دون ان يذكر اسمهُ وهو يفعل بابن الفقيه فعلهُ بابن خرداذبه فيأخذ عنهُ نصوصًا كثيرة ولا يذكر اسمهُ إكثر من ثلاث مرّات مع انهُ يلومهُ لادراجهِ اشياء عديدة في كتابهِ لا طائل تحتها

ومما نأخذهُ على جغرافيي العرب انّهم لم يكتفوا بوصف بلاد مخصوصة بل وسّعوا نطاق عملهم الى جغرافيّة الارض كلّها باقاليمها وقد جروا في ذلك جَرْيَ المؤرخين الذين ارادوا تدوين اخبار العالم كلهِ والممالك جمعاء فكانت نتيجة هذا العمل انّهم لم يُعطوا البلاد حقّها من الوصف. وكذا يُقال عن بلاد الشام التي لا تشغل في تآليفهم الّا مكانًا ضيّقًا ولو قصروا النظر اليها وحدها لأدّوا حقوقها واستوفوا معانيها ولعلّهم فعلوا ذلك لعلمهم بندرة الكتب لتكون تآليفهم جامعة لشتات التاريخ ولوصف البلدان ونحن مع إقرارنا بهذه المنفعة نتأسف على قلّة من تعمّقوا في تعريف بلادنا. ألا ترى مثلًا ابا الفداء وموطنهُ بلاد الشام لو اجتزأ بوصف بلاده بدلًا من وصف كلّ البلاد لكان كتابهُ تقويم البلدان اجزل نفعًا واكمل وصفًا يحتوي من التفاصيل ما لا يُرى في غيرهِ كما فعل الهَمْدانيّ في « صفة جزيرة العرب »

وقد بقي علينا ان نورد هنا اخصّ المطبوعات الجغرافيّة لأننا في المقالات التالية سوف نشير اليها مرّات عديدة. فها نحن نذكرها مع بيان خواصها وفضل اصحابها. وقد اكتسب المستشرقون شكر العلماء اذ وجّهوا الانظار الى اخصّ النصوص التاريخيّة

والجغرافيَّة فنشروها وقرَّبوا بنشرها منافعها وادنوا مواردها بحيث امكن المنتقد ان يتبيّن ما تتضمَّنهُ من الفوائد والفرائد

وكان الشرق حقيقاً بان يؤازر المستشرقين بالعمل لكنَّ اهل الشرق قد شُغلوا عن ذلك بما صرفهم في نشر التآليف الجغرافيَّة القديمة اللهمَّ الَّا القليل منها. وهذه المطبوعات نفسها خالية من النظر الانتقادي لا ترى فيها شيئاً ممَّا يدلّ على البحث والتنقير كالروايات المختلفة والمقابلة مع النصوص المتشابهة والفهارس الواسعة. ولا نستثني من هذا النقد طبعة صبح الاعشى للقلقشندي التي ابرزتها آخرًا المطبعة الخديويَّة وان كانت تفضل غيرها من الطبعات الشرقيَّة في هذا الباب. لكنَّ همَّة المستشرقين قد سدَّت هذا الخلل في ما نشروهُ في المانية وفرنسة من النصوص الجغرافيَّة

وبين البلاد التي اصابت السهم الافوز في نشر التآليف الجغرافيَّة بلاد هولندة. فانَّ هناك طُبع ذلك المجموع الفريد في ثمانية مجلَّدات المعروف بمجموع جغرافيي العرب (Bibliotheca geographorum arabicorum) وقد قام بهذا العمل رجلٌ همام من كبار المستشرقين احرز لهُ بذلك مجدًا اثيلًا الَّا وهو العلَّامة دي غوي (de Goeje) احد اساتذة كليَّة ليدن. وقد اودع هذا المجموع اجلّ المصنَّفات كالمسالك والممالك للاصطخري ولابن حوقل والمسالك والممالك لابن خرداذبه ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني وكتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته والتنبيه والاشراف للمسعودي وكتاب البلدان لابن الواضح اليعقوبيّ. وممَّا سعى بطبعهِ داود مولّر من اساتذة ڤينَّة كتاب صفة جزيرة العرب. ولكلّ هذه التآليف حواشٍ وتذييلات معتبرة وفهارس واسعة فضلًا عن جداول لغويَّة للالفاظ الغريبة والمفردات العويصة التي تفرَّد بها بعض الكتبة دون البعض. وفي هذه الجداول من الفوائد ما لا يُنكَر ومن شأنها ان تساعد على تأليف معجم مطوَّل للغة العربيَّة يكون مبنيًّا على النصوص القديمة لا يكتفي فيهِ صاحبهُ بنقل القواميس السابقة

ومن افضل ما عُني المسيو دي غوي بنشرهِ كتاب «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» للامام شمس الدين المقدسي فانَّ في هذا الكتاب من المحاسن ما لا تراهُ في غيره لاسيما في احوال الشام على عهدهِ اي في القرن العاشر ولذلك قد احببنا ان نكتب فيهِ فصلًا منفردًا